



تعلمنا من الطب والتاريخ على حد سواء أن حب السلطة يفوق أي حب آخر، وأنه إذا تمكن هذا الحب المرضي من المصاب به دفعه بكل قوة إلى التجاوز عن كل الأعراف والقيم، ودفعه بكل اقتناع أيضاً إلى ارتكاب كل الجرائم تحت مقوله أو مظنة الدفاع عن النفس.

وقد يقوده ذلك إلى تدمير مدينة بأكملها لأنها قد تضم إنساناً واحداً قد يفكر في ما من شأنه الانتهاص من وضعه، وحتى إنه قد يشرع بل يخطو خطوات واسعة في استئصال جنس بأكمله، أو جيل بأكمله، أو القضاء المبرم على من يعتنقون فكرة أو مذهبأً أو دينأً يرى أن أيّ منها تمثل مصدر خطر محتمل عليه.

الفارق بين الطب والتاريخ في هذه الجزئية المعرفية أن علوم الطب وفنونه وممارساته قد انتبهت بأكثر وبايكر (من الكور) مما انتبهت علوم التاريخ والمجتمع والسياسة إلى ما سميت في مناقشاتي بثنائية الأهمية والآلية: أهمية وآلية حماية الطاغية من نفسه، حتى من قبل التفكير الجاد في العمل على حماية المجتمع منه، وحماية البيئة منه، وحماية الوطن منه، وحماية الإنسانية منه في المقام الأخير.

ربما يتعلّق نجاح هذه الثنائية بما هو متوفّر بالفعل من العلم والفهم والقدرة المهنية، فقد نبهنا الطب البشري (والبيطري أيضاً) مبكراً إلى كثير من مظاهر صور جنون العظمة المرضي، ومنها على سبيل المثال ما أسميه المظاهر النصوصية في حديث المصاب بها، كما أطلعتنا مراجع الطب النفسي بصورة شبه كاملة ودقيقة أيضاً على المظاهر الإكلينيكية الكفيلة بتشخيص هذه الحالات، كما أرشدتنا وهدتنا ممارسة التوجيه الأسري والطفولي والارتقاء إلى آليات تربوية واجتماعية كفيلة بالحد من الآثار المرضية أو السلبية لهذه الحالات التي هي (الحسن الحظ البشري) ليست واسعة الانتشار.

وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت للحالات "متاخرة الظهور" من المرض درجات عالية من "السمية المعقّدة" التي هي كفيلة بأن تصعب من ظروف العلاج وتربيك مساراته تماماً.

يزداد الأمر صعوبة حين لا تظهر الصورة المشخصة لجنون العظمة إلا بعد الاستحواذ على السلطة، وكأنما أتى هذا المرض

نفسه عقاباً إلهاً للاستحواذ على السلطة بطريقة غير مشروعة سياسياً أو قانونياً، وفي هذه الحالات يعيش الطاغية المريض مع مجموعة مشاعر مركبة ومعقدة ومتناقضه تفوق طاقة البشر على التحمل والتصور والتكييف. ويصل الأمر به إلى حالات شبيهة بأن تكون هي بعينها المرض الروحاني الداخلي أو المستبطن.

وتبدأ هذه المظاهر في الاستعباد التام للنصاب بها إذا رأى مثلاً أن أوامره قد أصبحت تنفذ بذاتها في التو واللحظة وبأفضل مما يتوقع، فإذا به يقول لنفسه: أين كنت أيتها السلطة الفاتنة حين كان هؤلاء المسؤولون أنفسهم لا ينفذون إلا نسبة الربع من تعليماتي؟ ثم إذا هو يhardt السلطة المعاشوقة بوله المحب العاجز عن مفارقتها بعد أن أصابته بالنشوة في كل لقاء يجمعه بها، ثم إذا هو يستزيد من جرعتها ليزداد استمتاعه، ثم إذا هو يحارب بكل قسوة من أجل استبقاء هذا الممتلك الرائع. ومع ما جبت عليه النفس البشرية من الأثرة والأنانية والغيرة فإنه سرعان ما يعتقد في الحق الإلهي، وفي الأحقية التي كرسها له تاريخه المزور، أو غدره المكشوف، أو طموحه الظالم.

في الوقت ذاته، فإن أصحاب المصلحة في سوق السياسة والعمل الدولي والإقليمي -بمن فيهم تجار السلاح وتجار التفود وشركات العلاقات العامة المستحدثة- يبدؤون العمل الجاد والثبيث بل المحموم في مسارات مبدعة أو إبداعية تستهدف الاستثمار الخبيث لمعارفهم وخبراتهم السابقة فيما يمكنهم من الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب المتاحة في ظل وبفضل وجود الطاغية.

وعلى سبيل المثال، فقد بدأ التأييد السوفيتي لبشار الفيتو في مجلس الأمن على النحو المعهود من روسيا (والاتحاد السوفيتي من قبلها) بالتأييد السلبي المستند في هذا الحسم إلى آلية التعطيل بالفيتو، وكان الفيتو لم يخلق إلا لقتل مسلمي السنة أو أي طرف يكونون هم الأغلبية فيه.

ثم تطور استخدام الفيتو أو توظيفه من موقف إلى موقف حتى وجد الروس أنفسهم أمام فرصة ذهبية بلغة الإستراتيجية القديمة التي لا يريد الروس أن يعترفوا بأن الزمن عفا عليهما، وهكذا أصبح الروس ذات يوم يصورو أنفسهم في الإعلام وقد ربحوا معركة "عودة الوجود" أو "الوجود الثاني" في الشرق الأوسط في مقابل حفاظهم على رقبة طاغية.

وعلى الرغم من غرابة (ولا نقول سخافة) هذا المسلك (وهذا الطرح) في الأعراف الدولية فإن الأوروبيين من بعد الأميركيين أخذوا "على استهزاء ثم على استحياء" يسوغونه بدأب متخف سراً، ويتقابلونه على مضض علناً مع وجود فرصة دعائية (مجوحة ولكنها كافية لسد الثغرات الخلقية) تمثلها حقيقة غير معلنة وتغطيها غاية غير صادقة.

فأما الحقيقة غير المعلنة فهي التنجيص على تركيا، والتربيص بمشروع أردوغان الذي لم يعد من مفر أمام الجميع من تصويره والتعامل معه على أنه مشروع عثماني أحياناً (وإخواني أحياناً أخرى) إن لم يكن إسلامياً صريحاً المعاداة (حتى وإن كان في ذاته خالياً من أي نية عدوانية) مائة في المائة، وهنا عرف العالم المعاصر لأول مرة مواجهة مشروع لم يعلن العداء بمعاداة جاهزة!! ومن هنا جاء الوصف الاصطلاحي الذي لجأ إليه: صريح المعاداة.

وأما الغاية غير الصادقة فهي بصراحة شديدة لا تدعو أن تكون نسخة غير مرخصة من الأسطوانة المشروخة المسماة بمحاربة الإرهاب.

وعلى هذا النحو، تحولت أرض سوريا دون أي ذنب جناه شعبها إلى ما يمكن وصفه بأنه محطة أبحاث متقدمة للممارسات الإجرامية في السياسة، على نحو غير مسبوق.

يبد أن دهاء التاريخ، والتاريخ داهية كبير، يبنينا أن هذه المسرحية السوداء تمضي في طريق مفید للإسلام وللمسيحيين العرب من حيث لم يخططوا ومن حيث لم يتوقعوا، ومن الواجب على أن أصف بلغة الطلب وعلم النفس ذلك الفارق الكبير بين معركة سوريا الحالية و المعارك المئية سنة الماضية من عمر المنطقة بما فيها معارك نهاية الحرب العالمية الأولى ودخول البريطانيين إلى القدس لأول مرة منذ الحروب الصليبية وحتى التدخل الدولي في حرب الخليج وفي ليبيا.

وبمصطلحات الطب والعلاج (وعلم النفس والمجتمع أيضا) فإن المعركة في سوريا الآن "معركة بعث" على حين كانت سابقاتها "معارك إدمان" فالسوريون يزجحون بشار التي تتضاد القوى الدولية والأمم المتحدة نفسها للإبقاء عليه بينما كانت هذه القوى (والمنظمة الدولية معها) تسهم في إزاحة صدام ومعمرا بالقرار والقرار (وهو لفظ في العافية المصرية يدل بصورة ما على اللوجستيات) ومن الطبيعي أن هذا الإسهام ينشئ الإدمان، على حين أن الإسهام المعاكس للتاريخ والمعادي للشعوب يقود إلى البعث.

فإذا ما انتقلنا من وصف مسارات العلاج إلى وصف معقباتها، فمن الواضح أن هذا التكثيف على أرض الشام قمين بأن يرشد العقل الجمعي العربي إلى حتمية التطهير من بؤر الفكر الشمولي والشوفوني التي أسست لكل هذا الإجرام باسم الوطنية، ومحاربة عدو مصطنع هو في الواقع أقرب الداعمين لمن يصور نفسه مقاوما له، ومع أن هذه القضية تبدو محسومة سلفا لمصلحة الحق فإنها على أرض الواقع تمثل معضلة تفوق في صعوبتها المأسى التي نراها الآن على أرض سوريا.

ومن الإنصاف أن أشير إلى أن هذا التعقيد والتعقد يدفعان بعض المفكرين والساسة المخلصين إلى نصي بتأجيل الكلام في مراجعة التراث القومي الحديث وتجريم مجرميه وتطهير ضحاياه وتطعيم مواجهيه وعلاج مصابيه، لكنني لا أزال أعتقد أن من المفيد حتى للمفاوضات مع بشار (ونسخ بشار المستحدثة) أن أنادي بهذه الخطوات الأربع قبل أن تكرر مسرحية بشار مرات أخرى في ساحات أخرى ترحب بها.

الجزيرة نت

المصادر: